الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

نبضات الحياة تعود

عندما تستيقظ الأمم بأجراس المدارس

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في الساعة السادسة والنصف من صباح سبتمبر ، تنطلق أصوات المنبّهات في آلاف البيوت العربيّة كأجراس خفيّة تبشّر بولادة جديدة، فهناك أمّ تقف أمام مرآة الحمام، عيناها منتفختان من قلّة النوم، تنظر إلى انعكاس وجهها وكأنّها تودّع نسخة أخرى من نفسها - تلك التي عاشت شهرين من الفوضى الخلاّقة مع أطفالها في المنزل، وفي الغرفة المجاورة، طفل في السابعة من عمره يقاوم الاستيقاظ، يده الصغيرة تبحث لا شعورياً عن هاتف والده الذي اعتاد أنْ يلعب عليه قبل النوم، ولكنّ الهاتف هذه المرّة ليس هناك، فقد قرّرت الأسرة - مثل آلاف الأسر الأخرى - تطبيق قانون "الصباح المقدّس" حيث لا أدوات رقميّة قبل المدرسة....

وفي الشارع، تصطفّ السيّارات في طوابير طويلة تشبه مواكب احتفاليّة، في كلّ سيارة قصة عائلة تعيد ترتيب حياتها، فالنوافذ مفتوحة، وأصوات الأطفال تختلط بأصوات الراديو الذي يذيع برامج صباحيّة تتحدّث عن "العودة إلى الحياة"....وهنا تطرح تساؤلات شتّى...

أنّى لمشهد يتكرّر كلّ عام أنْ يحمل كلّ هذا العمق؟

هل نحن أمام مجرّد روتين اجتماعيّ، أم أنّنا شهود على طقس جماعيّ يعيد تشكيل روح الأمة؟

ما الذي يحدث حقاً عندما تدّق أجراس المدارس لأوّل مرّة بعد عطلة الصيف؟

هل نحن أمام استئناف للأنشطة التعليميّة، أم أنّ هناك شيئاً أعمق يحدث؟

ولماذا تشعر الأمّهات بهذا الخليط المعقّد من الحزن والراحة؟

وكيف يمكن لمنع الهواتف من المدارس أنْ يعيد تشكيل طريقة تواصل جيل كامل مع العالم؟

وما هي القوّة الخفيّة التي تجعل ملايين الناس حول العالم يغيّرون إيقاع حياتهم في التوقيت ذاته؟

إنّ هذه ليست مجرد أسئلة تربويّة، بل استفسارات وجوديّة عن طبيعة المجتمع الإنسانيّ وكيف يتنفس ويحيا ويتجدّد..

فمع بداية العام الدراسيّ، يشهد المجتمع العربيّ - ولربما الإنسانيّ بأسره - نوعاً من إعادة التزامن الجماعيّ، تزامن الوقت، فالوقت الذي كان في الصيف مرناً وقابلاً للتشكيل، قد عاد ليصبح مقدّساً ومنظّماً، فالساعة السابعة صباحاً لم تعد مجرّد رقم على المنبّه، بل أصبحت لحظة البداية المقدّسة التي تحدّد إيقاع يوم كامل، وهذا التحوّل في علاقتنا بالزمن ليس ضرورة عمليّة وحسب، إنّما هو طقس اجتماعيّ عميق، فعندما تستيقظ ملايين الأسر في الوقت ذاته، وتتحرّك في الاتجاه ذاته، وتشارك القلق والأمل ذاتهما، فإنّها تخلق نوعاً من الوعي الجماعيّ الذي يتجاوز الحدود الفردية...

وفي خضّم كلّ هذه التّغييرات المنتظرة مع بداية العام الدراسيّ، تنعكس هذه البداية على قطاع الاقتصاد في المجتمعات على اختلافها، وتبثّ فيه الانتعاش المفاجئ، فمحلاّت القرطاسية تعجّ بالزبائن، والمكتبات تستعدّ لموسم الذروة، وشركات النقل تشهد زيادة في الطلب، والمطاعم قرب المدارس تعيد فتح أبوابها بعد سبات الصيف، فهذا النشاط الاقتصادي ليس مجرّد حركة تجاريّة، بل هو تعبير عن عودة الحياة إلى المجتمع، ففي كلّ عمليّة شراء كتاب، وفي كلّ رحلة بالحافلة، وفي كلّ وجبة في مقصف المدرسة، هناك نغم اجتماعيّ يعزف لحن العودة إلى الحياة....

ومع بداية العام الدراسيّ، تنتعش وظائف كثيرة، فالسّائقون، وعمّال النظافة في المدارس، وطبّاخو المقاصف، وحرّاس الأمن، ومشرفو الحافلات، كلّ هذه الوظائف تصبح فجأة أكثر أهميّة وحيويّة، وفي الوقت ذاته، نشهد ولادة وظائف جديدة، كمطوّري التطبيقات التعليميّة، ومستشاري التكنولوجيا التربويّة، ومدرّبي المعلّمين على الأساليب الحديثة، وهذا التطوّر يعكس كيف أنّ التعليم يتطوّر ويتكيّف مع التغيّرات العالميّة...

وعلى صعيد الأسرة العربيّة، التي عاشت قرابة الشهرين في حالة من التماسك المكانيّ والزمانيّ، فإنّها تجد نفسها أمام تحدّي إعادة التوزيع، فالأطفال الذين كانوا يقضون اليوم كلّه في محيط الأمان العائلي، يستعدّون لرحلة يوميّة إلى عالم آخر - عالم المدرسة بقوانينه وتحدّياته ووعوده...

فالأم، التي كانت الشاهد الدائم على كلّ لحظة من لحظات أطفالها، تجد نفسها أمام فراغ زمنيّ، وقد وجب عليها أنْ تملأه بمعنى جديد، فهل ستعود إلى عملها؟ وهل ستكتشف هوايات مؤجّلة؟ أم أنّها ستجد نفسها في حالة انتظار دائمة لعودة الأطفال؟

والأب، الذي اعتاد على فوضى الصيف المختلطة بالضجيج العذب والشغب في المنزل، يجد نفسه أمام مسؤوليّات جديدة، من توصيل الأطفال، ومتابعة الواجبات، والاستعداد للامتحانات، فهو في تحوّل من دور "الأب المتفرّج" إلى دور "الأب المشارك" بكلّ ما يحمله ذلك من ضغوط وإشباع...

وفي الجانب الآخر من حياة البيت والأسرة، ودور الأم والأب، نجد أنّ المدارس تقوم بدورها في إشعال جذوة هذه الحياة من جديد، فنراها على سبيل المثال قد طبّقت قوانين منع استخدام الهواتف الذكية في المدارس، ورغم بساطة هذا القانون وسطحيّته، إلاّ أنّه يحمل في طيّاته ثورة حقيقيّة ضدّ هيمنة التكنولوجيا على حياة الأجيال الناشئة....

فتخليّوا أنّ طفلاً في الثانية عشرة من عمره، نشأ وهاتف والده في يده، فجأة يجد نفسه في مساحة خالية من الشاشات لمدة لا تقلّ عن ست ساعات يومياً، فما الذي سيحدث لدماغه؟ وكيف ستتطوّر قدرته على التركيز؟ وماذا عن علاقاته الاجتماعيّة؟ الكثير من الأسئلة ستقودنا إلى أنّ هذا القرار ليس متعلّقاً بمنع الهواتف وحسب، إنّما هو متعلّق بإعادة اكتشاف طرق أخرى للتّواصل والتعلّم والاستكشاف، فالطفل الذي كان يبحث عن إجابة سؤال في جوجل، سيضطر الآن للبحث في كتاب أو سؤال معلّم أو مناقشة زميل، فهنا تحوّل جذريّ في طريقة الحصول على المعرفة.

وفي ظلّ غياب الهواتف، تعود المحادثات الحقيقيّة إلى باحات المدارس وساحاتها، والأطفال يتعلّمون مجدّداً كيف ينظرون في عيون بعضهم البعض أثناء الحديث، وكيف يقرؤون تعابير الوجوه، وكيف يطوّرون مهارات الاستماع والتواصل اللفظيّ، وهذا التحوّل لا يؤثر فقط في الطلبة، إنّما في المعلمين أيضاً، فالمعلّم الذي اعتاد على المنافسة مع الشاشات لجذب انتباه الطلبة، يجد نفسه الآن أمام جمهور حقيقي، وعيون تنظر إليه بفضول واهتمام حقيقيّين....

ففي عالم تتدفّق فيه المعلومات من كلّ حدب وصوب، يواجه المعلّم تحدياً وجودياً حول ماهيّة دوره الحقيقيّ، أهو مجرّد ناقل للمعلومات، أم أنّ له دوراً أكبر وأعمق؟

فالمعلّم اليوم لا ينقل المعلومات لكونها متاحة في كلّ مكان، ولكنّه يعلّم الطلبة كيف يفكّرون، وكيف يحلّلون، وكيف يربطون بين الأشياء، وكيف يطرحون الأسئلة الصحيحة، فهو يعلّمهم الحكمة لا المعلومات،

فعندما يدخل المعلّم إلى الصّف في بداية العام الدراسيّ، وينظر إلى وجوه الطلبة الخالية من توهّج الشاشات، يدرك أنّه أمام فرصة ذهبيّة، فرصة لإعادة تشكيل أجيال، لغرس قيم وفضائل، لإثارة فضول، لإشعال شغف بالتعلّم يستمر مدى الحياة، ففي عالم يتّجه نحو الذكاء الاصطناعيّ والأتمتة، يصبح المعلّم حارساً للإنسانية، منبعاً للقيم، معلّماً للرحمة والتعاطف والأخلاق، والقيم الإنسانية التي لا يمكن لأيّة خوارزميّة أنْ تنقلها بإنسانيّته..

وعلى الطرف المستقبل لما يبثّه هذا المعلّم، نجد الطالب الذي اعتاد على استهلاك المحتوى السّهل والسريع على الهواتف، متواجداً في بيئة المدرسة أمام تحدٍّ جديد قائم على الإبداع والمشاركة والتفاعل الحقيقي، فيتحتّم عليه أنْ يتحوّل من دور المتفرّج إلى دور المشارك، ففي الغرفة الصّفيّة، يجد نفسه بلا شاشات تشتّت انتباهه، فيكتشف قدراته التي لم يكن يعلم بوجودها، ويكتشف أنّه يستطيع التركيز لمدة أطول، وأنّه يستطيع حلّ المشاكل بطرق إبداعيّة، وأنّه يستطيع التواصل مع أقرانه بطرق أعمق وأكثر معنى...

ناهيك عن تعلّم الطالب لحقيقة هويّته، واكتشاف من هو، وما يحبّه، وما يكرهه، وما هي مواهبه، وما هي تحدّياته، فهو في المدرسة سيبني شخصيّته من خلال التفاعل مع الآخرين، ومواجهة التحدّيات، وتحقيق الإنجازات الصغيرة والكبيرة، وسيخوض رحلة نحو الأصالة الإنسانيّة والعمق القيميّ بعيداً عن تأثير وسائل التواصل الاجتماعي والضغوط الرقميّة، وسيكتشف نفسه الحقيقيّة، لا النسخة المفلترة التي تظهر على الشاشات لنيل الإعجابات ....

وعلى صعيد النّظرة الأعمّ والأشمل للمجتمعات، فإنّ هذا الوقت من العام يُظهر نوعاً من التضامن الاجتماعي العفويّ، فالأسر تتبادل النصائح حول أفضل المدارس، والأمهات ينظّمن مجموعات لتوصيل الأطفال، والجيران يتناوبون على مراقبة الأطفال في غياب الأهل، وهذا التضامن من شأنه أنْ يخلق نوعاً من الشبكة الاجتماعيّة الطبيعيّة التي تقوّي المجتمع وتزيد من تماسكه.

فما يحدث في العالم العربي يحدث في الوقت ذاته تقريباً في معظم أنحاء العالم، ففي سبتمبر من كلّ عام، تشهد الكرة الأرضية نوعاً من التزامن الإنسانيّ المذهل، حيث ملايين الأطفال يدخلون المدارس، وملايين الأسر تعيد ترتيب حياتها، وملايين المعلّمين يستعدّون لعام جديد من العطاء، والتجدّد والأمل، والإيمان بأنّ التعليم يمكن أنْ يغيّر العالم..

وهكذا، مع كلّ صباح جديد من أيام العام الدراسي، تستمرّ أنغام الحياة في العزف بألحان لا تنتهي، ألحان الإنسانيّة التي تتعلّم وتعلّم، تنمو وتنمّي، تحلم وتحقّق الأحلام، وعلى الرغم من أنّ عالمنا قد يبدو أحياناً مفكّكاً ومتناثراً، إلاّ أنّ بداية العام الدراسي تأتي لتذكّرنا بأنّ هناك ما يجمعنا، ألا وهو....

حلمنا المشترك في مستقبل أفضل لأطفالنا، وإيماننا بأنّ التعليم هو الطريق إلى هذا المستقبل.